الخطاب القرآني
ومنهجه في القصص النبوي

الأستاذ الدكتور
فوزي عبد العظيم رسلان قمر
رئيس قسم الدعوة والثقافة الإسلامية

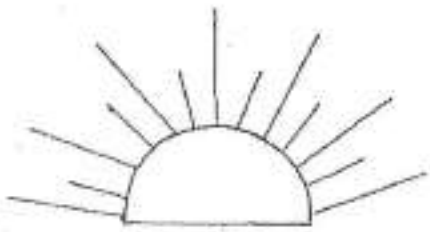

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، قص على نبيه الخاتم من أنباء الرسل ما ثبت به فؤاده ، وجاءه فيه بالحق ، والموعظة ، والذكري للمؤمنين ، فكان بذلك أحسن القصص ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى جميع إخوانه من النبيين والمرسلين ، وألهم وصحبهم ، وعلى كل من استمع القول فاتبع أحسنه إلي يوم الدين .

﴿ رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ (١) . ﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ (٢)

وبعد

فالقرآن الكريم كتاب الله الخالد ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، الثابت بنصه ولفظه منذ أن نزل على النبي الخاتم سيدنا محمد (ﷺ) بواسطة أمين الوحي جبريل – عليه السلام – إلي يومنا هذا ، لم يطرأ عليه تغيير ... لم يحذف منه حرف ، ولم يضف إليه حرف ، وبقي يقرأ ويكتب ، ويدرس ، ويناقش في نصه الأصيل ... إذ هو الكتاب الإلهي المتعبد بتلاوته ، لا يقرأ سواه ، ولا يتلى غيره في القارات الخمس ، وعلى مدي القرون المتتابعة ، على الرغم من تغيير الحدود الجغرافية ، ونشوء وسائل جديدة لا حصر لها في كل درب من دروب الحياة ، وتغيير أسلوب الخطاب بين الناس .

---

١ – سورة آل عمران الآية رقم : (٨) .

٢ – سورة الكهف من الآية رقم : (١٠) .

وقد لا يكون هذا أمراً غريباً – يستوقف النظر – إذا كان المؤمنون الذين يقرءون القرآن ويتلونه من أبناء العربية الذين نزل القرآن الكريم بلسانهم ، لكن الواقع يؤكد غير ذلك ، فالمسلمون منتشرون في إفريقيا وآسيا ، وموجودون في أوروبا وأمريكا ، لغاتهم متباينة ، ولهجاتهم مختلفة ، وكثرتهم العظمي لا تقرأ العربية وقد لا تفهمها ، ومع ذلك فهم يتعبدون بالقرآن الكريم بنصه العربي ، وفيهم من يحفظه عن ظهر قلب ، وينطق نطقاً صحيحاً ... ومع ذلك يعجز عن ان يرد عليك بكلمة عربية ، إذا خاطبته باللغة العربية ، وهذا سر من أسرار إعجازه ، قال تعالي :﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١) ، وقال عز شأنه : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (٢)

فالقرآن الكريم محفوظ بحفظ الله له ، ومن خلال القرآن الكريم تبوأت اللغة العربية مكان الصدارة ، وصار لها النصيب الأوفى إلي أن تقوم الساعة ، وما كان ذلك إلا من خلال القرآن الكريم معجزة كل العصور ، ولن يزال ... وسيزال ...

ومن الغريب أن الإنسان قد نسج لنفسه ثوباً أظهر مستوره ، وحاكي غيره في شتي فنونه ، وصار أمره من أمره .... ، فذابت ذاتيته وكثرت همومه ، وأفقده ما حاكاه حقيقة وجوده ، وأصبح في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج ، إذا أخرج يده لم يكد يراها ... وما كان ذلك إلا من فقده لهويته ، وبعده عن المنهج الإلهي الذي يزيح عنه هذا التراكم من أمواج الظلمات ، فيعلم حقيقة وجوده ، ومن ثم تزاح همومه ، ويثبت أمام مقدوره ، ويوقن بجرم ما أظهره من مستوره ، وما سار عليه من المخالفة لحقيقة وجوده .

إننا الآن نعيش ثورة المعلومات ، واختراق حاجز الزمان والمكان ، وأصبح الإنسان يعيش عيشه قلقة –بلا معني ولا هدف– فالهدف أمامه مجهول ،

---

١ – سورة الحجر الآية رقم : (٩) .

٢ – سورة القمر الآية رقم : (١٧) .

والأطماع وضغائن المذاهب ، والنظريات ، والتحديثات تهدده من شتي نواحيه ، وصار يتكالب على الاقتناء والاستحواذ طلباً للأمان .... فضمرت الروح عنده ، وعلت مخالبه ، وقواطعه ، وأنيابه ، وصار يعيش بلا رحمة بعد أن فقد جميع الفضائل والقيم ....

وها هو ذا العالم صار أمامنا كالقرية التى تحيا فيها ، وأصبح واضح الحروف ... لا تخفي فيه خافية ... ومع ذلك كان الانهيار والتفكك الأسري ، والانحلال الخلقي ، والجري وراء المخدرات وعقاقير الهلوسة ، والغيبوبة ، والضياع ، والسر في ذلك أنهم أبعدوا الله – عز وجل – عن نسيج حياتهم ، وغفلوا الحقيقة المحتومة التى ستفاجأهم ... ومن ثم نقول : ماذا قدم العلم المادي بلغته المادية – حينئذ – سوي أنه خاطب الجسد من الإنسان ، وأعلي أنانيته ، وصار وحشاً في البرية !! وماذا صنعت الفلسفات المادية بالإنسان سوي التحرر من القيد المهذب غير الغاصب من الغير حقه المبين له ولغيره ، بواسطة الوحي الإلهي ، والخطاب الرباني ، وصدق الله – عز وجل – حيث قال : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ (١) .

وإذا كانت لغات العالم كثيرة ، فإن لهجاتها أكثر ، وهذه آية من آيات الله في الخلق ، قال تعالي : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾ (٢) ، وقوة آية لغة في العالم من قوة الناطقين بها حين يكون التمكين لهم في الأرض ، وعكس ذلك كائن – أيضاً – .

ومن المحاولات المغرضة التي استهدفت الإسلام وأهله تهجين اللغة العربية باللغات الأخرى وإرغام أهلها على ذلك – بكثرة المصطلحات المتجددة تبعاً لأنظمة العصر وما يجري فيه – لا العمل على إنمائها وإثرائها ، والرقي

---

١ – سورة المؤمنون الآية رقم : (٧١) .

٢ – سورة الروم الآية رقم : (٢٢)

بها من خلال أسلوب خطابي سهل غير متقعر ولا متشدق به ، يألفه الإنسان أينما كان ،ولن يكون ذلك الأسلوب إلا من خلال الخطاب القرآني واتباع سبيله ، وهذا الزم في الخطاب ، ومن غفل عن ذلك فليتدبر القرآن الكريم حينما تحدي أهل عصره وهم أهل بلاغة وفصاحة وبيان أن يأتوا بمثله ،أو بعشر سور مثله ، أو بسورة من مثله فعجزوا ... قال تعالي بعد أن خاطب الناس جميعاً بعبادته من خلال قوله :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ..... ﴾ قال سبحانه : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ • فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (١)

وإذا كان هذا التحدي في العصر الذي نزل فيه القرآن الكريم .. فإن هذا التحدي ما يزال مستمراً إلي أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ولن تهلك الأمة إذا ما تمسكت به ، وفهمت لغة خطابه ،وما فيه من معاني ، وإيحاء ، وتذوقات ، فتأصلت بقيمة ومبادئه ، وعملت على إتمائه وتأصيله ، خاصة فيما يتعلق بمفهوم الخطاب ولغته ، مستخدمة الأسلوب السهل الواضح ، الذي لا لبس فيه ولا تعقيد ، ولا يحتاج في الخطاب إلي بيان .... بعيداً عن التهجين اللغوي ، والتراكيب المقصوصة من اللغات الأخرى ، وفضول الكلام وحواشيه ، كي لا نقضي على أنفسنا ، فوجودنا من وجود ديننا ..... وما علينا إلا أن نقبل على كتاب ربنا فندرك مقاصد الخطاب الإلهي من الوجوه التى يتصرف فيها من ذكر قصص ، ومواعظ ، واحتجاج ، وحكم ، وأحكام ، وإعذار ، وإنذار ، ووعد ، ووعيد ، وتبشير ، وتخويف ، وأوصاف ، وتعليم ، وأخلاق كريمة ، وشيم رفيعة ، وسير مأثورة ، وغير ذلك من الوجوه ، فعن علي بن أبي طالب – كرم الله وجهه – قال : سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : " ستكون فتن كقطع الليل المظلم ، قلت :

---

١ – سورة البقرة الآيتان رقم : (٢٣ ، ٢٤) .

يا رسول الله وما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله تبارك وتعالي ، فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغي الهدي في غيره أضله الله،هو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء، ولا يمله الأتقياء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴾ (١) ، "من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا إليه هدى إلي صراط مستقيم " (٢) .

ولأصالة الخطاب القرآني ، وتعدد وجوهه ، جاء هذا البحث معالجاً وجها من وجوه هذا الخطاب وهو " القصص النبوي " موضحاً مفهومه ، وعناصر منهجه ، وأغراضه ، وطريقة عرضه،ذلك أنه القصص الحق البعيد عن الخيال ، والتسلية ، والترويح ، فهو ليس قصصاً بالمعني الفني للقصة ، لخلوه من مفهوم الحبكة القصصية ، وغير ذلك ممن يعتبرونه من خصائص القصة ، إذ القرآن الكريم ليس كتاباً قصصياً ، أو مسرحياً ، أو نثراً فنيا ... لقد فاق كل هذا واعتلي بإعجازه ، وجاءت مشاهده القصصية ، وأحداثه ، ووقائعه التاريخية ، مسايرة لطبائع البشرية جمعاء ... فهو وإن كان إلهي المصدر ، فهو بشري الصورة والمنزع ، يتحدث عن أحوال الرسل الكرام مع أقوامهم ، وأحوال أممهم ، كما يتحدث عن الفرد والجماعة ، والأمم ... وأثبت بالدلائل القطعية عالمية الرسالة الخاتمة ....

---

١ - سورة الجن من الآية رقم : (١) .

٢ - سنن الدارمي – فضائل القرآن / باب ١ / رقم الحديث ٣٣٩٤ .

ومن ثم كان القصص النبوي ثورة من الحقائق والمعارف ، والإيحاءات ، والتذوقات ، والتصورات ، والقيم ، والمبادئ الإنسانية الرفيعة ، والأهداف السامية الصالحة لكل زمان ومكان .

أسأل الله العلي القدير أن ينفع به ، وأن يغفر لنا ذنوبنا ، ويسترنا في الدنيا والآخرة ، وأن ينصر أمة الإسلام ، ويجمع المسلمين على كلمة سواء ، إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير .

وصل اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى جميع إخوانه من النبيين والمرسلين وآلهم وصحبهم ومن سار على هديهم إلي يوم الدين

التعريف بالخطاب القرآني

جاء في معاجم اللغة :

(خطب) الناس ، فيهم ، وعليهم ، خَطَابة ، وخُطْبة : ألقي عليهم خطبة (الخطبة) من الكلام المنثور يخاطب به متكلم فصيح جمعاً من الناس لإقناعهم . و – من الكتاب : صدره ، (ج) خطب .

(خاطبه) مخاطبة وخطاباً كالمه وحادثه ، و– وجه إليه كلاماً . ويقال : خاطبه في الأمر : حدثه بشأنه . (تخاطبا) : تكالما وتحادثا .

(الخطاب) : الكلام ، و – : الرسالة ، وفصل الخطاب : ما ينفصل به الأمر من الخطاب وفي القرآن الكريم : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ (١) . والخطاب المفتوح : خطاب يوجه إلى بعض أولي الأمر علانية (٢) .

من هذا البيان اللغوي يمكننا أن نقف على حقيقة الخطاب فنقول :

الخطاب : إما أن يكون كلاماً ، أو حديثاً .

وإما أن يكون رسالة موجهة .

هذه المعاني شملها الخطاب القرآني ، فهو من ناحية الكلام ... كلام الله المنزل على رسول الله سيدنا محمد (ﷺ) المكتوب في المصحف ، ومن ثم حمل هذا المعني تعريف القرآني الكريم ، فالخطاب القرآني لا ينفصل عن القرآن بأي حال من الأحوال ... !!

---

١ – سورة ص من الآية رقم : (٢٠) .

٢ – المعجم الوجيز – مجمع اللغة العربية – القاهرة – مادة (خطب) / ٢٠٢ .

ومن ناحية الحديث : فهو أعلي الأحاديث وأتمها ، وبه ينفصل الأمر من الخطاب ، قال تعالي : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ (١) ، وقال جل شأنه : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ (٢) ، وقال سبحانه : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣) . لأجل هذا جاء التهديد والوعيد الشديد ، لكل أفاك أثيم ، استمع إلي الله ثم أعرض عنه ، قال تعالي : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ * وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (٤) ، كما جاء التحدي واضحاً لكل من قال فيه بقول ، أووجهه إلي وجهة ،أو إلي فن من فنون البشر ، قال تعالي : ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ * أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ * قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ * أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَـٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ * أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ (٥)

وفيما يتعلق بكونه رسالة موجهة فنقول :

لقد خاطب الله – عز وجل – نبيه الخاتم (ﷺ) بالقرآن الكريم ، والقرآن الكريم دستور الرسالة الخاتمة ، وخاطب – كذلك – من معه من المؤمنين به ،

---

١ – سورة الزمر الآية رقم : (٢٣) .

٢ – سورة النساء الآية رقم : (٨٧) .

٣ – سورة يوسف الآية رقم : (١١١) .

٤ – سورة الجاثية الآيات رقم : (٦ – ٩) .

٥ – سورة الطور الآيات رقم : (٢٩ – ٣٤) .

وغيرهم ...،فقال تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) . ، بذلك حدد الله مهمة نبيه ، فما عليه إلا البلاغ ، قال تعالى : ﴿ مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ (٢) ، ووجب من خلال هذا البلاغ الطاعة والاستجابة لله – عز وجل – ولرسوله الكريم فيما بلغ عن ربه سبحانه ، قال تعالى : ﴿ وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ ﴾ (٣) ، وقال تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ (٤) ، وقال جل شانه : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ (٥) هذا البلاغ محدد الغاية والهدف ، إنه لا يخرج مضمونه عن تكاليف الخطاب التى تضمنها الكتاب المنزل ، فيعلم الناس إنما الله إله واحد ، قال تعالى : ﴿ هَـذَا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ وَلِيَعْلَمُواْ أَنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ (٦)

ومن ثم جاء الخطاب للمؤمنين الذين آمنوا به،واتبعوا سبيله بقوله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (٧) . ، وبقوله جل شأنه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن

---

١ – سورة المائدة الآية رقم : (٦٧) .
٢ – سورة المائدة الآية رقم : (٩٩) .
٣ – سورة المائدة الآية رقم : (٩٢) .
٤ – سورة التغابن الآية رقم : (١٢) .
٥ – سورة النور الآية رقم : (٥٤) .
٦ – سورة إبراهيم الآية رقم : (٥٢) .
٧ – سورة الأنفال الآية رقم : (٢٤) .

تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ (١)

كما جاء الخطاب – الإلهي للناس جميعاً من خلال الخطاب النبوي ، وهذا واضح وجلي في القرآن الكريم حيث قال الله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِـي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (٢) ، وقال سبحانه : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَـكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) ، وقال جل شأنه : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ (٤) ، وقال أيضاً : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ (٥)

وقد جاء – أيضاً – الخطاب الإلهي في القرآن الكريم للناس جميعاً ، دون أن يوجه الخطاب لنبيه الخاتم (ﷺ) ليؤكد بذلك موضوعية الخطاب في القرآن الكريم للناس جميعاً ، فيقول جل شأنه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٦) ، ويقول سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي

---

١ – سورة النساء الآية رقم : (٥٩) .
٢ – سورة الأعراف الآية رقم : (١٥٨) .
٣ – سورة يونس الآية رقم : (١٠٤) .
٤ – سورة يونس الآية رقم : (١٠٨) .
٥ – سورة الحج الآيات رقم : (٤٩ – ٥١) .
٦ – سورة البقرة الآية رقم : (٢١) .

السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (١) ، ويقول أيضاً : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ (٢) ، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) ، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ (٤) ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ (٥) ، ثم يقول – جل شأنه – في صورة من صور خطابه البياني ، وهي صورة ضرب المثل المحسوس – المشاهد – ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٦) .

إن مهمة الخطاب الإلهي – في القرآن الكريم – تنشيط السلوك الإنساني ، وتغييره لصالح الإنسان أينما كان وحيثما حل ، ولن يكون ذلك إلا من خلال وحدة الفكر ، والالتزام بمنهجية الوحي المعصوم ، قال تعالى : ﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ * فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلا الْبَلاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ ﴾ (٧) ، وقال سبحانه : ﴿ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ

---

١ – سورة النساء الآية رقم : (١٧٠) .
٢ – سورة النساء الآية رقم : (١٧٤) .
٣ – سورة يونس الآية رقم : (٥٧) .
٤ – سورة فاطر الآية رقم : (٣) .
٥ – سورة فاطر الآية رقم : (٥) .
٦ – سورة الحج الآيتان رقم : (٧٣ : ٧٤) .
٧ – سورة الشورى الآيتان رقم : (٤٧ : ٤٨) .

فلنفسه ومَنْ عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ (١) ، وقال عز وجل : ﴿ أو مَن كانَ ميتًا فأحييناهُ وجعلنا لهُ نورًا يمشي به في الناس كمن مثلُهُ في الظلمات ليس بخارجٍ منها كذلك زُيِّنَ للكافرين ما كانوا يعملون * وكذلك جعلنا في كل قريةٍ أكابرَ مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون * وإذا جاءتهم آيةٌ قالوا لن نؤمنَ حتى نؤتى مثلَ ما أوتي رسلُ اللهِ اللهُ أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالتهُ سيصيبُ الذين أجرموا صغارٌ عند اللهِ وعذابٌ شديدٌ بما كانوا يمكرون * فمن يُرِدِ اللهُ أن يهديهُ يشرحْ صدرهُ للإسلامِ ومن يُرِدْ أن يضلَّهُ يجعلْ صدرهُ ضيقًا حرجًا كأنما يصعدُ في السماءِ كذلك يجعلُ اللهُ الرجسَ على الذين لا يؤمنون * وهـذا صراطُ ربكَ مستقيمًا قد فصلنا الآياتِ لقومٍ يذكرون ﴾ (٢) .

بعد هذا البيان لمفهوم حقيقة الخطاب الإلهي نريد أن نزيد هذه الحقيقة وضوحاً وبياناً فنقول :

لقد نزل القرآن الكريم في عهدين متعارفين متمايزين : العهد المكي : وهو ما قبل هجرة النبي (ﷺ) ونزل بمكة المكرمة ، والعهد المدني : وهو ما كان بعد هجرة النبي (ﷺ) ونزل بالمدينة المنورة .

وقد نزل القرآن على النبي (ﷺ) فيهما ، مصبوغاً بأسلوب لغوي معجز ، يتناسب مع موضوع الخطاب ، ويتلاءم مع نفسية المخاطبين ... متدرجاً مع الأحداث تدرجاً موضوعياً ، يتلاءم مع أحوال البشر الاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية ...

ومن ثم فالقرآن الكريم صورة صادقة للأحداث التي مرت على الإسلام والمسلمين ، وكذلك في منهجه المتبع حين التبليغ ، ومخاطبته للمدعوين .

---

١ - سورة الأنعام الآية رقم : (١٠٤) .

٢ - سورة الأنعام الآيات رقم (١٢٢ - ١٢٦) .

لذلك لزم كل من خوطب به وقام بدراسته ، وقراءته ، وبيان مفاهيمه ومعانيه ، وتحليل قضاياه وأحكامه ، أن ينظر إلي من أنزل عليه القرآن الكريم ، وإلي المخاطب به ، وإلي الموضوع الذي يتناوله ...

يقول صاحب الإتقان عند الحديث عن أخطاء المفسرين ومواطن زللهم ... " أكثر ما يقع الخطأ عند التفسير من جهتين :

إحداهما : قوم اعتقدوا معاني ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن الكريم عليها .

ثانيتهما : قوم فسروا القرآن الكريم بمجرد ما يسوغ في لغة العرب من غير نظر إلي المنزل عليه القرآن ، والمخاطب به ، وموضوع الخطاب... " (١)

وانطلاقاً من هذا الاتجاه المحمود ، ظهر لنا جلياً من خلال آيات القرآن الكريم أن المخاطبين في مكة يختلفون عن المخاطبين في المدينة المنورة – عند نزول القرآن الكريم ، بيئة ، وسلوكاً ، وفصاحة ، وخلقاً ، وعقلاً ....

وأن الموضوعات التى تناولتها السور المكية تختلف عن الموضوعات التى تناولتها السور المدنية .

وأن منهج الرسول (ﷺ) في التبليغ قد اختلف في المدينة عن مكة – باختلاف من يدعوهم – ، فكان من كمال الحجة البالغة ، وتمام البلاغ للناس ، تليين القول ، وتأليف القلب ، وحسن المودة ، وسن المعاهدات والالتزام بها ....

لهذا كان للقرآن الكريم – المدني – موضوعاته الخاصة ، وأسلوبه المتميز ومنهجه الواضح في البيان ... مراعيا في ذلك أحوال المدعوين ، واختلافهم في السلوك والطبائع فحينما وصل النبي (ﷺ) المدينة ، أصبحت المدينة – حينئذ – دار أمان للمسلمين ، وموطنهم المبارك ، وصار المجتمع – المدني – مكونا من أربع طوائف :

---

١ – الإتقان في علوم القرآن – السيوطي ٤ / ١٧٩ .

الأولي : المهاجرون وهم الذين هاجروا بدينهم من مكة إلي المدينة .

الثانية : الأنصار وهم أهل المدينة الذين اسلموا واستقبلوا النبي (ﷺ) ومن معه من المسلمين المهاجرين في دارهم ، ومواطن إقامتهم .

الثالثة : المنافقون وهم الذين وقفوا من الإسلام والمسلمين مواقف متباينة ، أظهرهم الله – تعالي – وفضح سلوكهم المشين في أول سورة مدنية – سورة البقرة – حيث قال سبحانه في وصفهم :﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـكِن لاَّ يَشْعُرُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَـكِن لاَّ يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُوَاْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوَاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ (١) ، ومن ثم نري أن القرآن الكريم من خلال أسلوبه الخطابي لم يتحدث عن المنافقين إلا من خلال السور المدنية .

الرابعة : اليهود وهم بقية من بني إسرائيل مع بقية من تهود من العرب ، وكانت هذه الطائفة من أشد الطوائف عداء للرسول (ﷺ) وللمسلمين،وكان كفرهم به كفراً قبيحاً ، فهو النبي المرتقب عندهم ، والمستفتح به على من سواهم ، وقد جاءهم بكتاب مصدق لما معهم ، قال تعالي : ﴿ وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٢) وإعلان اللعنة عليهم يكشف في الوقت ذاته عن كزازة طبيعتهم،واستكثار أى عطاء يناله غيرهم ، مع أن الله قد

---

١ – سورة البقرة الآيات رقم : (٨ – ١٤) .

٢ – سورة البقرة الآية رقم : (٨٩) .

أفاض عليهم وعلى آبائهم،قال تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ (١) .

نري من ذلك أن القرآن الكريم من خلال أسلوبه المدني يخاطب كل هذه الطوائف ويبطل مزاعمهم ، وافتراءاتهم ، وحججهم ، ويوجه القول للمشركين ، مهدداً ، ومنذراً ، ومخوفاً بأسلوب يغاير الأسلوب المكي ... وفي خصائص تتطلبها موضوعات الخطاب ، ومنهجيته .

وعن موضوعات الخطاب في السور المدنية ، فهي كثيرة وجديدة ، وتتضمن أحكام الصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، والعلاقات السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، وذلك كالزواج ، والطلاق ، والرجعة ، والخلع ، والميراث ، وتحريم الخمر ، والميسر ، والأنصاب ، والأزلام ، والربا ، وأكل الميتة ، والخنزير ، وما أهل لغير الله به ، والقتل ، والسرقة ، كما شملت – أيضاً – معاملة الرقيق ، وفريضة الجهاد ، ومعاملة الأسرى ، وتقسيم الغنائم ..... الخ .

وعن أحوال المدعوين فقد بين القرآن الكريم للنبي (ﷺ) ولمن معه من المؤمنين أحوال المدعوين ، وأسلوب الخطاب معهم ، فقد مضي – فيما يسمي – عهد الاضطهاد والتنكيل والتعذيب ، وجاء عهد الأمان والمواجهة بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، والقول الحسن ، والدليل على ذلك ما جاء في سورة النحل وهي سورة مكية إلا الآيات الثلاث الأخيرة فمدنية ، وهي من أول قول الله تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ..... ﴾ (٢) إلي آخر السورة الكريمة .

---

١ – سورة النساء الآية رقم : (٥٤) .

٢ – سورة النحل من الآية رقم : (١٢٥) .